رجل وست حقائب

جيهان فيصل ملا طيب ـ مصر

يفتح الستار فنرى شارعا يحتوى على عدة مباني بعيدة وفى المنتصف رصيف وخلفه نخيل مصفوف بشكل مرتب جميل يوحى بأنه شارع خليجي ..على يسار المسرح جزء من مبنى سكني... نسمع جلبة وأصوات أشخاص غير واضحة وكأنها لهجات متعددة ومتداخلة فى جدال غير مفهوم نتبين منه صوت أبى ابراهيم بطلنا...

ـ اهدأوا يا أخوان ..ما كل هذا الانفعال؟ لو فقط تهدأون سنتوصل الى اتفاق..

(تستمر جلبة النقاش غير الواضح وفى نفس الوقت نرى حقائب يتم دفعها على عجلاتها من المبنى لتستقر على الرصيف.. و بعد قليل نجد أكياس التسوق العديدة تقذف أيضا من داخل المبنى الى الرصيف نسمع صراخ أبى ابراهيم):

ـ انتظر ماذا تفعل أنت؟ توقف أنت أيضا.. لا تدفعوا الحقائب بهذا الشكل .اياكم أن ينكسر شيء..فلنتناقش.. صبرا بالله ما أغلظك أنت ..وأنت أيضا..ألا تقدرون الأحوال؟ ..

ـ انتظر واصطبر..ربما تهدأ الأحوال ..كم من طبول

قرعت فوق الرؤوس من قبل ..ثم بقدرته تعالى مرت الأزمات تباعا بسلام ..انتظر ..لا لا ..أين أذهب بكل أغراضى ألا تصنع معروفا أبدا..لا تدفعنى هكذا ..لا

يخرج الينا أبو ابراهيم كأنما يدفع بأيدي رفاقه هو الآخر بعدما دفعوا حقائبه الست..نراه رجلا فى منتصف الخمسينيات من عمره يظهر على المسرح بسرعة بفعل الأيدي القوية الى هذا الشارع مطرودا من أحد ما...يعدل من وضع هندامه وينظر خلفه فى غضب

ـ الأزمة عاصفة ..عاصفة..وتشملنا كلنا ولست أنا وحدى..كان أجدى أن نتفاهم يا رفاق..أهكذا يكون الرفاق؟ لعنة الله عليكم وبئس الرفقة كنتم..

يقف الرجل متأملا حقائبه وأكياسه وتعبير على وجهه يوحى بهدوء ما قبل العاصفة ونتوقع أنه سينفجر غضبا فيمزق هذه الأكياس والحقائب أو يعود ليكمل المشاجرة ..لكنه يضع يديه فى جيبيّ بنطاله كأنما عز عليه أن يطرد ..وينظر خلفه نحو المبنى ثم يقول

ـ كيف تخرجوني جبريا هكذا من المسكن؟ حقا ان لم تستح افعل ما شئت ...(**يطأطئ رأسه ويقول بصوت خفيض**) أنا من يجب أن يستحي ..لقد تحملتموني لمدة شهرين منذ فقدت عملي ...احقاقا للحق ..لم تكونوا بئس الرفقة فيها ولى من سنين..شاركتكم السكن والمأكل والمشرب لعدة سنوات مضت ..كنا 12 جنسية من كافة

الجهات الأصلية للكرة الأرضية نتنفس هواء بضع أمتار مربعة تؤينا ..ورغم صعوبة الحياة لا يمكنني أن أمحو ذكريات حميدة لن تغادرني حتى أموت....حتى جاءت الأزمة ..يقال إنها أزمة مالية عالمية ..ففقد بعضنا عمله وخفّضت رواتب البعض الآخر الى النصف .. وكنت أنا ممن عاش ككائن طفيليّ على أعتاقكم فى انتظار أن أجد فرصة عمل أخرى، الا أن الأزمة التى حرمتني وظيفتي، قطعت عليّ السبيل إلى فرصة عمل جديدة، لا لم تكونوا بئس الرفقة، تحملتم عني أجرة المسكن وتقاسمتموها عنى لمدة شهرين حتى أرزق بعمل، ما ذنبكم فى تحمل تبعة أزمتي برواتبكم الضئيلة؟ كان أجدر بي أن أستحي ولا أكلفكم مشقة أكثر من ذلك..لكن أملي فى أن أجد وظيفة ريثما تنتهي اقامتي هو ما جعلني أستمر فى البقاء معكم ..حتى انتفض أحد الرفاق وقال كفى..معلنا ضم عضو جديد مستعد للمشاركة فى دفع ايجار «جحر» الأرانب هذا الذى يسمى بالخطأ سكنا، سمعت اعتراضا أو اثنين خافتين ثم نزعت براقع الحياء، واتحد الرأي على طردي أخيرا من السكن ..(**يتنهد**) طردني الرفاق ..لا بأس فقد طرد يونس من المركب الى البحر من قبل خوفا من ثقل الحمولة وهل أنا أفضل من يونس عليه السلام؟

على الأقل رمى يونس فى البحر وابتلعه الحوت..أما أنا فرموني الى الرصيف بحقائبي الست ..حمدا لله فأنا لا أجيد العوم..

يجمع حقائبه المبعثرة وأكياسه من هنا وهناك ..

ـ لعل الهدايا لم تنكسر أو تنبعج داخل الحقائب ..لنرى.. ست حقائب هى حصيلة رحلة اغتراب بدأت قبل بضع وعشرين عاما وما كنت لأعرف متى تنتهي لولا اندلاع الأزمة ..آه لو صبر القاتل على المقتول لأخبرتهم بأننى مسافر الليلة لحضور حفل زفاف ابنتي ولكن ما يكن بعدها...ست حقائب تحوي داخلها الهدايا المنتقاة للأحباب ..بدأت الرحلة بحقيبة واحدة وها هى تنتهى بست حقائب..وما بين الحقيبة الأولى والست الأخيرة ولد من وُلد ومات من مات ..وكبر الصغير وشاخ الكبير ..وغزا الشيب الرؤوس بضراوة فى غفلة من لهاثنا خلف لقمة العيش..يا إلهي ..مرت الأعوام بأسرع مما تخيلنا.

يفتح احدى الحقائب قائلا:

ـ الهدايا تحتاج لإعادة ترتيب ..لم يسعفنى الوقت لفعل ذلك..والآن يمكننى ترتيب كل شئ حتى موعد اقلاع الطائرة (**يصمت قليلا ثم يقول**) غدا ... ولنبدأ بهذه..

إنها حقيبة أم ابراهيم زوجتى ..

فيخرج رداء نوم نسائيا أحمر اللون بوردات بيضاء ..يبتسم مخاطبا القميص

ـ مرحبا أم ابراهيم ..جئتك بألوانك المفضلة ..الثورية مثل مزاجك ..افتقدك كثيرا ..أنا فى حالة افتقاد مستمرة لك منذ بضعة وعشرين عاما..لا أعرف كيف مضت وكيف طاوعتك على البقاء بعيدا كل هذه المدة؟

ـ **(يقلد صوتها بمسكنة)** عقد عمل فى الخليج يا أبا ابراهيم؟ وماذا أنا فاعلة هنا وحدي مع طفلين صغيرين؟

ـ هل تعتقدين أنني يجب أن أرفض السفر؟

ـ ولكن ماذا عن التزاماتنا الكثيرة؟ ..أقساط الشقة.. أقساط الأثاث..وقسط الثلاجة وقسط التلفاز .وما نحتاج من مال استعدادا لدخول ابنتك المدرسة ..و..

ـ **(كأنها يقاطعها متنهدا)** كأننا نعيش كل الحياة بالتقسيط..بقى أن ندفع أقساطا عن أنفاسنا ..سأسافر لأفي بالأقساط..لعل عاما يغطيها ثم أعود.

ـ **(كأنه يمسك هاتفا)** ألو؟ أم ابراهيم؟ كيف حالك.. لا أطيق صبرا ها قد مر ثلاثة أعوام ..وأنا بعيد عنكم.. أعمل وأطبخ طعامي وأغسل ملابسي وأعتصر آلام

الفراق عنكم...الآن أفكر بالعودة.

ـ (**يقلد صوت زوجته بلهجة عملية باردة وكأنها تضغط أزرار آلة حاسبة**) لا أظن أنه موعد العودة الآن ..علينا أن نسدد أقساط الشقة المصيفية ..ومصروفات الدروس الخاصة لولديك وأقساط ما اشتريناه من أجهزة كهربية ومنزلية جديدة

ـ (**بائسا**) لا**!!** ..مزيد من الأقساط و مزيد من الانتظار...ألهذا أنت رابطة الجأش غير ملتاعة كسابق عهدك؟ أحقا تهزم أعباء الحياة عواطفنا وتجعلنا ندهسها ونمضي..ليسحب عام وراءه عاما ثم عاما حتى مضى عشر سنوات دون أن نشعر ..فقط أنبئنا الشيب الزاحف على الرؤوس كلص متسلل محنك...لاحظت عليك وقتها تغيرا آخر خطيرًا..أنكرت تفكيري في العودة ..بل لم تبال باقتراحي سفركم معي وليكن ما يكن من تقلص المدخرات..

ـ (**يقلد صوتها ويمسك آلة حاسبة وهمية**) لا يا أبو ابراهيم..سنبقى نحن هنا حيث استقر الطفلان بالمدرسة، سافر أنت وارسل لنا كل شهر ما يكفينا.

ـ أهكذا الأمر اذا؟ صرت مجرد رقم في حياتكم تذكرونه كل شهر في بطاقة مصرفية أمام الموظف المختص؟؟**!**

ـ لا تكبر الأمر يا أبا ابراهيم ..واحكم لف أوراق الجرائد حول كؤوس العروس كيلا تنكسر.

ـ **(كأنها تذكر)** الكؤوس؟ العروس؟ ..أية كؤوس وأية عروس؟ فيم كنا نتحدث؟ إلهي ما أبرع النساء فى اللف والدوران وإدارة دفة الأحاديث لصالحهن

(يفتح احدى الحقائب فيخرج منها كؤوسا ملفوفة فى أوراق جرائد..)

ـ كئوس العروس وأكواب الشاي ..حمد لله لم ينكسر منها شيء **(يقلد صوت زوجته وطريقتها وهى تستعمل الآلة الحاسبة)** أبو ابراهيم احفظ ..12 كأسا طويلة ..12 كأسا قصيرة..12 كوب شاي ..12 كوب عصير ..12 فنجان قهوة..احفظ يا أبا ابراهيم

ـ **(بصوته)** ولكن يا أم ابراهيم ..كيف لى أن أحفظ كل هذا؟ لماذا لا تشترين مثل هذه الأشياء من المحال حولك بدلا من تحميلي كل هذه الأثقال فى حقيبة السفر؟

ـ **(يقلد صوتها وطريقة استخدامها الآلة الحاسبة)** كل دستة تشتريها من عندك ستوفر لنا 17 جنيها وخمسين قرشا ..

ـ يا امرأة سأدفع هذه السبعة عشر جنيها والخمسين قرشا جمارك للوزن الزائد فى حقيبتي.

ـ **(يقلد طريقتها)** يا رجل ..أتريد أن ينتقص من مقامنا أهل العريس؟ ألا تريد أن تفخرالعروس بأن أباها لم يبخل و أتى لها بأغلى الأشياء أمام أهل زوجها؟

ـ كيف أغلى وأنت تقولين إنها أرخص هنا؟ قد يفهمون العكس تماما.

ـ **(بصوت زوجته)** يا رجل لا تجادل ..اشترِ ما طلبت منك كى تفرح العروس وتزهو بها أتاها أبوها وكفى.

ـ نعم كفى ..مجنون من يجادل امرأة.. المهم أن تفرح العروس..**(بدهشة)** من هى العروس؟! ابنتي ذات الضفائر الحالكة السواد التى تحتضن دميتها وتنيمها بجوارها كل ليلة؟ أى عروس؟ ابنتي التي أوصلتها لتّوي قبل سفري الى مدرستها وكانت خائفة تتشبث بيدى راجية ألا أتركها وحدها؟

ـ **(بصوت رؤف كمن يحادث طفلا صغيرا)** حبيبتي.. ستقضين وقتا طيبا وتتعلمين أشياء مفيدة وستلعبين مع أطفال فى سنك.

ـ **(يقلد صوت ابنته)** لا تتركنى يا بابا ..لا أحد يريد أن يلعب معي.

ـ **(بحنان)** كيف مضى الوقت منذ ذاك اليوم وحتى

صارت عروسا هذا اليوم؟ يبدو الأمر كحلقة مفقودة قام الرقيب بقصها فى مسلسل تلفزيوني طويل ..فاختصرت الأحداث بصورة غير منطقية ..مابين طفولتها وشبابها حلقة مفقودة..هل كنت على سفر طوال هذه العمر؟.. آخر زياراتي لهم بدت منطوية حزينة..ما بها يا أم ابراهيم؟

ـ **(يقلد صوت زوجته)** لا تقلق ..هذه هى أطوارها.. بين الحزن والنقمة تارة والرضا والسرور تارة أخرى منذ تخرجت فى الجامعة.

ـ الجامعة**!!** أنهت حبيبة أبيها دراستها وبعدها بسنوات صارت عروسا ..وسأسلمها الى شاب لم ألتقهِ من قبل سوى مرتين أو ثلاث ..و

ـ **(بصوت زوجته كأنها تقاطعه)** لا تنس يا أبا ابراهيم.. أن تشترى من المحال عندك ..قماش فستان العروس.. وأقمشة حجرة الصالون وأغطية الفراش والستائر وأجهزة المطبخ وكؤوس العصائر وأكواب الشاى وطقم القهوة و ..و..

(يمسك رأسه كأنه تعب من كثرة ما تلقنه من طلبات)

ـ وقمصان نوم للعروس؟

ـ **(ثائرا)** لا هذا كثير ..أأشترى قمصان نوم لابنتي؟

ألا يكفي أن الغريب سيأخذها منى بل وسأسلمها له بنفسي؟

ـ هل سأبكى وأنا أعطيها لزوجها يوم الفرح؟ على نفسي أم على فراقها؟ أنا لا اعرفها ..آخر صورة منطبعة فى ذهني صورتها يوم دخول المدرسة ..وهى ستغادرنى لبيت زوجها فمتى أتعرف على ابنتي؟ ربما فى الجنة؟ ومن أدراني أنها ستدخل الجنة؟ أنا لم أربها لأعرف..كف عن أفكارك السخيفة يا أبا ابراهيم ..وأحكم اغلاق حقيبة العروس لئلا ينكسر شيء ..

(يغلق الحقيبة وينتقل الى حقيبة أخرى أصغر حجما ..يخرج منها قميص شاب فى العشرينات وقبعة كتب عليها «ان واى» رمزا لمدينة نيويورك وهاتفا محمولا ..يرتدى على رأسه القبعة يخاطب القميص برزانة)

ـ هاك الأشياء التى طلبتها يا ابراهيم وأحدث أنواع الهواتف المحمولة رغم أن هاتفك السابق كان بأفضل حال، ولكن كما تقول أمك: دعه يساير أقرانه فيما يرتدون ويقتنون .. ما يهمني يا ابراهيم أن تعلم أنك رجل البيت فى غيابي .. ويزعجني أن أسمع من أمك أنك تدخن السجائر خلسة فى حجرتك؟ ونصيحتي لك وأنت على أعتاب الشباب يا بنى مودعا الصبا تذكر أن الرجولة ليست فى دخان السجائر..بل فى مواقفك

وتقدمك الدراسى وحفاظِك على أمك وأخويك فى غيابي ..أما عن مجموعة الصبية الذين يحاولون جرك لطريق السوء اعتقادا بأن أباك يرسل اليك ما لاحصر له من مال فابتعد عنهم ..

ـ **(يتقمص شخصية ابنه بالقبعة والهاتف المحمول على أذنه).**

انهم أصدقائى يا أبى، وأمى تروج عنهم الشائعات فحسب

ـ الصديق لا يدفع صديقه إلى التهلكة يا بنى..لعل الوقت ضيق، لكننى فى الإجازة القادمة سأفيض فى الحديث معك.

ـ **(يقلد ابنه المتهكم)** الإجازة القادمة بعد عام أو عامين.. حسنا سأنتظرك حينها فقط ذكرنى أين توقفنا فى هذا النقاش الممتع يا أبي ..

(يطأطأ الأب رأسه بحزن):

ـ الولد يتهكم علىّ يا ام ابراهيم

ـ **(بصوت زوجته)** لا تكبر الأمر يا أبا ابراهيم

ـ **(ثائرا)** بل الأمر كبير يا أم ابراهيم ..الهوة تتسع بينى وبين ابني وابنتي بل حتى أخيهم الصغير ..هذا الولد الذى جاء وليد احدى اجازاتي القصيرة ..ثم قابلته

عندما بلغ العامين فنظر اليّ وقال **(يقلد صوت طفل)** «من أنت؟» ألا يعد هذا دليلا أن المشكلة قد كبرت وكبرت؟ والبعد طال ثم طال؟

أثناء نوبة غضبه يخرج من حقيبة صغيرة لعبة ابنه الصغير وهى بندقية ذات صوت مميز فيهدأ فجأة ثم يقول بصوت طفل صغير:

ـ أهلا يا بابا

ـ **(يجثو على ركبتيه كأنما يحادث طفلا صغيرا)** أهلا حبيبى..هل تعرفنى؟ الآن صار عمرك 5 سنوات.. التقينا خلالها ثلاث مرات فقط إحداها وأنت فى بطن أمك ..هل تذكرني الآن؟

ـ نعم أنت بابا

ـ **(بفخر وفرح)** أحسنت

ـ **(يكمل بصوت الطفل)** الذى يحضر الهدايا كل عام

ـ **(مصدوما بصوته هو)** أهذا ما أفهموك اياه؟ أو فهمته أنت من تلقاء نفسك...فلا حاجة لتفسير أى غموض.. الموقف يشرح ذاته ..أنا الرجل الذى يأتى كل عام بست حقائب مليئة بالهدايا ..وها أنا ذا أعود ...بست حقائب أيضا.

(يصمت حزينا لكنه يبادر نفسه بلهفة الطفل)

ـ وأى لعب أحضرت هذا العام لى؟

ـ (**يبتسم كأنها يستسلم أمام الطفل ويرفع البندقية اللعبة**) هذه.

ـ (**يقلب اللعبة كطفل غير مقتنع**) ما هذه؟ كيف تعمل؟

ـ تضغط الزناد هكذا فيصدر عنها هذا الصوت هكذا و ...فقط

ـ فقط!! ألا تتضمن الساعة السحرية التى تحولني بأشعة الطاقة الخماسية الليزرية الى كائن خارق يهزم وحوش الفضاء المارين الى الكوكب الأخضر لتدميره وعلينا انقاذه؟

ـ ما.. ماذا؟ من أين جئت بكل هذا الهذيان الفضائي يا ابن الخامسة؟

ـ من أفلام الرسوم المتحركة ..البطل الخارق

ـ وماذا عنك؟ ماذا تريد ان تكون عندما تكبر؟

ـ رائد فضاء ..أو شرير ..لأدمر العالم بقواي الخفية

ـ شرير!! لعنة الله على الرسوم ..كم تغيرت الأجيال كنا نحلم أن نصير ضباطا وأبطالا والآن يرون البطولة فى الشر

(يغلق حقيبة الابن الأصغر .. يفتح حقيبة أخرى يرتبها)

ـ هذه حقيبة أمي الغالية وأخوتي ..(**يتقمص شخصية أمه ممسكا قطعة قماش**) هل أحضر لزوجتك أكثر مما أحضرت لى يا ابا ابراهيم؟

ـ لا يا امي ..أحضرت لك أغلى الأقمشة وأحلاها.. واشتريت لأم ابراهيم بضعة أشياء ولكن ليست فى جمال ما انتقيت لأمي الغالية.

ـ (**يكمل تقمص شخصية أمه**) وهل وجدت الوظائف لابناء أخوتك كما أوصوك؟

ـ ماذا تظنين ابنك يا أمي؟ الحاكم بأمره حيث أعمل؟ لو كنت بهذا النفوذ لوجدت لنفسى عملا بديلا عن الذي سرحت منه ..أعلم أن أخوتي وأصدقائي لن يتفهموا ذلك ومنهم من امتلأ غضبا وضيقا خافيا منى ..أرى هذا فى زلات ألسنتهم ونظرات عيونهم ..ربما يفهمون يوما ..

(يغلق حقيبة أمه وأخوته ويفتح آخر حقيبة يرتب ما بها)

ـ هاقد وصلت إلى الحقيبة الأخيرة..هدايا أصدقائي... في السابق كانت أكثر امتلاء عن ذلك..تناقص عدد الأصدقاء بين من رحل عن العالم ومن رحل إلى بلاد أخرى سعيا وراء فرص أخرى للعيش الكريم..هناك

أيضا من رحل ذهنه بفعل داء الزهايمر وبقى جسده.. وحده صديق طفولتي الذى بقى فى نفس المكان ..أميزه من أشيائه وطقوسه منذ لحظة دخولي شارعنا القديم عند عودتي كل مرة ..هذا مقعده فى شرفته الصغيرة.. وذاك كوب الشاي بالنعناع على الإفريز ..وتلك آنية الريحان العبقة التى يزرعها فى ركن شرفته ..وهذه لعبة الطاولة التى شهد نردها صولاتنا وجولاتنا فيما مضى من وقت جميل.

ـ كيف حالك يا صديقي؟

ـ **(يتقمص صوت صديقه)** له الحمد على كل حال ..ابن عاطل وابنة غير قادر على اعدادها للزواج ..هل أخطأت حين خفت السفر والاغتراب مثلك يا أبا ابراهيم؟

ـ صديقي الذى هزمته الهموم وضيق ذات اليد..جعلني أرى وجها آخر حسنا هذه المرة للاغتراب والفراق ..

(يستلقى على ظهره ويتنهد متأملا) :ـ

ـ أيها الفراق لو كنت رجلا لقتلتك ..ولكن أي فراق؟ أنا لم أفارقهم طوال الأعوام الماضية الا بجسدي ..كنا دائما على وصال.

(تخفت الاضاءة كأنه نائم على فراش وبجواره يرن الهاتف فيوقظه من نومه):

ـ **(بصوت ناعس)** ألو؟ نعم كنت نائما يا أم ابراهيم.. كان يوما شاقا فى العمل ..ما الأمر؟ لابد أنه أمر خطير.. ماذا؟ ابراهيم انضم إلى مجموعة صبية..لا تكملي أهم من يحرضونه على تدخين السجائر و...ماذا؟ مجموعة أخرى فى الجامعة؟ على ماذا يحرضونه هذه المرة؟ ..التظاهر ضد أمريكا؟ ماذا فعلت له أمريكا؟ يطالبون بتحرير العراق وفلسطين!! **(ينزع عن رأسه القبعة وينظر اليها جيدا ثم يتساءل بدهشة)** ابراهيم آى لاف نيويورك يتظاهر ضد أمريكا!! على منطق أكرهك ولا أطيق فراقك أم ماذا؟.. سأكلمه **(بجدية مخاطبا ابراهيم)** يا ابراهيم ..التفت إلى دراستك وحسب ..زمن البطولات انتهى.

(يعود للنوم فيرن الهاتف من جديد):

ـ ألو؟ نعم كنت نائما يا أم ابراهيم ..كان يوما قاتلا فى العمل اليوم..ما الأمر؟ لابد أنه أمر خطير..تحدثي.. ابنتي مكتئبة؟ كيف هذا؟ انهت دراستها وتزوجت صديقاتها بينما قبعت هى فى البيت بلا شيء تفعله.. دعيها تبحث عن عمل ..ولم لا؟ تخشين من المضايقات والتحرشات؟ هذا يتوقف على طريقة تربيتك لابنتك يا

أم ابراهيم...دعيني أكلمها ..يا ابنتي لا تخافي ..تسلحي بأخلاقك واخرجي الى معترك الحياة..تعرفي عليها ودعيها تعرفك.

يعود الى النوم ..يرن الهاتف مرة أخرى فيرد بصوت ناعس:

ـ ألو؟ نعم يا أم ابراهيم كنت نائما ..كان يوما ..(**يصيح بغضب**) لماذا تتصلين دائما فى هذا الوقت الحرج؟ ماذا؟ الصغير مرتفعة حرارته؟ وتقيأ كل محتويات معدته؟ اطرقي أبواب الجيران ..دعيهم يساعدونك لنقله الى المستشفى ..لا ترددي فالجار للجار.

يعتدل وينهض ..يمسك رأسه بين كفيه فى تأزم شديد:

ـ حبيبي الصغير مريض ولا استطيع أن افعل له شيئا، حبيبي الذى يعتقد ان كل مهمتي كأب إحضار الهدايا كل عام ..

ـ كم مر بي من أزمات كهذه وأكثر على مدى الأعوام المنصرمة ..يا إلهي لك الحمد أنني تحملت.

يسمع رنينا على هاتفه فيغمغم قبل أن يجيب:

ـ أم ابراهيم ..هذا ليس معادك المفضل لازعاجي.. أقصد للاتصال بي.. (**ينظر الى الرقم جيدا**) لا ليس ام ابراهيم..انه أحد زملائي (**ينظر الى المبنى**) أحبائي

هل اشفقتم عليّ من حياة الرصيف تلك؟ نعم العشرة لا تهون إلا على أولاد الحرام ..ونحن عشرة طويلة.. سنوات طويلة مرت تقاسمانا فيها شقاء العمل ولوعة فراق الأحبة (**يجيب الهاتف**) ألو؟ كيف حالك صديقى سانج هل أنتم نادمون على ما فعلتموه معي؟ هل تبكون ألما وحسرة لما آل اليه حال الوفاء والصداقة ؟ لا بأس لست غاضبا ..أعرف حالتكم المتأثرة بالأزمة المالية لذا أنا سامحتكم و.. ماذا؟ كوب شاي كرك زائد عن حاجتكم؟

يتوقف لحظة مصدوما ونحن كمشاهدين نتوقع أن يسب ويلعن لكنه يقول بعزم:

ـ أنا قادم لآخذه.

ينهض ويتجه الى المبنى يسار المسرح ..يغيب داخله ثم يظهر بعد قليل بكوب شاى كرك(شاى هندى باللبن المكثف والبهارات):

ـ شاي كرك ..لا قطع الله لكم عادة يا رفاق ..شكرا لكم على أية حال ..لاذنب يدينكم ..أنا فقط من ارتفع سقف توقعاته الى عنان السماء ..ولكن شكرا على اية حال.. جاء الكوب الساخن فى وقته تماما ..

يعود للجلوس على الرصيف ويشرب باستمتاع:

ـ اعتدتم طوال الأعوام الماضية ..على اعداد هذا الشاي قبيل غروب كل يوم ..ما أطيبه..لكم استمتعت به معكم.. رائحته الزكية كانت تتحالف مع تيار الحنين وأحزان المساء الجارفة ليصنعوا نسيجا من مدهشا من آلام الفراق النبيلة.

يرتشف رشفة أخرى:

ـ لولا مجيئي هنا ما تعرفت على الشاي الكرك..ولقد تعرفت على أشياء أكثر وأكثر هنا .. لعل هذا من مزايا هذا السفر الطويل..عندما كنت صغيرا تمنيت أن أكون بحارا لأزور مدن العالم وأرى شعوبها ..ولكن عملي هنا جعل العالم يأتي لي بدلا من أن أذهب اليه..قابلت نصف شعوب الأرض هنا ..تعرفت على دأب ونشاط العامل الفلبيني والأسيوي ونيران طعام الهندي والباكستاني وعقدة الشعور بالتفوق لدى الأوربي، وحدة انفعال الأفريقي ثم هدوءه فى الحال..وبحمق الانسان الفطري فى اصدار الأحكام المطلقة بناء على تجارب مفردة.. عندما كنت أحب أناسا تصير شعوبهم ملائكة وبلادهم جنات تجري من تحتها الأنهار.. وعندما كنت أكره آخرين ..أروج لكراهية واحتقاركافة بني جنسهم وكأن هذه الشعوب عليها أن تتحمل وزر أبنائها.

ـ **(يتنهد ويكمل شرب الشاي)** آه ..هذه الأشياء سأفتقدها..المدهش فى الأمر أن أكتشف أن كل من قابلت من مِلل ونِحل انها جاءوا من نفس واحدة أورثتهم نفس الحنان ونفس الخوف ونفس القدرة على الحلم بل ونفس الحمق والجنون.

يكمل الشاى ويتنهد:

ـ ترى كيف ستستقبل أم ابراهيم خبر عودتي النهائية؟

ـ **(يقلدها وهى تحمل الآلة الحاسبة)** لقد فاجأتني يا أبا ابراهيم ..عليّ أن أعيد حساباتي مرة أخرى لأرى ان كان يمكنك العودة أم ..

يصرخ فجأة ويمثل أنه يخطف منها الآلة الحاسبة ويطيح بها بعيدا ..

ـ دعك من هذه الآلة الحاسبة الآن ..كفاك تفكيرا بالأرقام..وفكرى بقلبك ولو مرة واحدة

ـ **(يقلد زوجته)** قلبي؟ الآن تسأل عن قلبي؟ بعد أكثر من عشرين عاما من تحكيم العقل والآلة الحاسبة؟ أو مُرْ بما هو مستطاع يا أبا ابراهيم

يبدو عليه أنه مهموم بفكرة مواجهة امرأته ثم ينظر الى كوب الشاي الذى نفد.

ـ نفد الشاي ..كان لذيذا..سأدعي أنني أعيد اليهم

الكوب لعلهم يعطونني المزيد منه.

يسير فى اتجاه المبنى لكنه ينظر مجددا الى الكوب:

ـ انه كوب بلاستيكي.. اللعناء ..قطعوا عليّ الطريق كيلا أطرق بابهم بحجة ارجاع الكوب ..لعلهم خافوا أن تضعف مشاعرهم ..فيدعوننى من جديد الى السكن المجاني حتى انتهاء الاقامة ...ما العمل يا أبا ابراهيم؟ من أسأل؟ من استشير؟ تعودت أن ألجأ الى أبي رحمه الله لاستلهام رأيه فى أمور مصيرية عديدة..لم تكن كل آرائه فى الحقيقة صائبة ..لكننى كنت أحب أن أسمع رأيه.. ترى ماذا كان ليقول لي فى مثل هذا الموقف؟

ـ **(يتقمص صوت أبيه)** يا ولد يا أبا ابراهيم ..أتحمل الهموم ومفرَّج الكروب موجود..أتفكر فى باب أغلق لحكمة وتنسى بابين فتحا برحمة؟ ما احمق الانسان.. أما علمت أن رزقك فى السماء لن يمسسه أحد ليطمئن قلبك؟ ..علام تحمل هم مستقبل لم يأت بعد وتتجاهل ما يحدث الآن؟ ماذا عساك تفعل لو كان مستقبلك كاحلا مثل ظنونك؟ أعساك تمنع شرا أو أذى؟ فلم الهم اذاً؟ افرح بما بين يديك الآن يا أبا العروس..ستدخل الجنة بزيجة هذه الفتاة ..انظر الى نصف الكوب الملآن.. ربما امتلأ النصف الفارغ قريبا ..

يصمت أبو ابراهيم كأنما هو مشدوه بما قال أبوه ..يمسك الهاتف ويتحدث:

ـ مرحبا عزيزتي أم ابراهيم ..أنا قادم لأفرح معك... اتركى الآلة التي بيدك ..أسمع ضرباتك على أزرارها.. سنفرح أولا وليكن ما يكن بعدها

ـ مرحبا إبنتى الحبيبة ..اعلمي أني سأكون أسعد أب فى العالم وأنت تتأبطين ذراعي لتكملين الطريق مع زوجك..ستنهمر دموعي ككل أب يودع مدللته الصغيرة وسأعوض ما فات من عمرينا فى أولادك فأراهم يكبرون ويتحولون من الطفولة الى الصبا فالشباب كأني أراكِ أنت.

ـ ولدى الحبيب ابراهيم ..أنا قادم اليك لأروى لك قصتي مع الدنيا ..أول هدف أحرزته فى ملعب الكرة.. أول سيجارة تذوقتها ..أول قضية أتحمس للهتاف لها.. أول فتاة أحببتها ..لم تكن أمك بالمناسبة ولكن ابق الأمر سراً بيننا..أنا قادم اليك يا ولدي.

ـ حبيبي الصغير سآتي وأروي لك حكايات أبطال حقيقيين لا أشراراً ..ربما لم ينقذوا العالم ولكنهم أنقذوا أنفسهم من احباطات كثيرة واجهتهم فى الحياة..

ـ صديقي القديم حضّر طاولتك ونردك ستعود الأيام الخوالي.

ـ أمي.. كم افتقدك..أتيت لك بكل ما تحبين واذا وزنت حقيبتك وحقيبة زوجتي فستجدينهما متساويتين .. جهزي الميزان ..أنا قادم يا أحبائي ..ماذا؟ ماذا يا أمي؟ نعم أحضرت لك فستانا لامعا مطرزا عند الصدر والذراعين..ستنافسين العروس يا أمي **(يضحك ثم يستمع باهتمام)** ها؟ غطاء رأس فضي اللون؟ ليتناسب مع حقيبة يدك؟ آه هذا ما نسيته ..معك حق كيف لي أن أنسى سؤالك عن لون حقيبتك وحذائك يا لذاكرتي الخربة .. لا يا أمي .. لدي وقت لآتي لك بغطاء رأس فضي يتناسب مع الحقيبة والحذاء..دمت لي يا أمي ..الى اللقاء.

يغلق الهاتف وينظر الى الجمهور:

ـ عليّ أن أذهب الآن ..في مهمتي الأخيرة قبل الرحيل.. غطاء الرأس الفضي ..إنه وقت الفرح ..لن أفكر بسواه.. ربما يمتلئ نصف الكوب الفارغ قريبا ..هيا يا حقائبي

يسير بنشاط وتعجل باتجاه يمين المسرح كأنما يسير الى نهاية الشارع جاراً وراءه حقائبه الست ....

النهاية